

صراع الحقّ والباطل



يقول تعالى: (وَمِمَّا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمِمَّا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَدُّنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُذِّبًا فَعَالِينَ * بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَاقِي الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِنْكُمْ تَصِفُونَ) (الأنبياء / 16-18). إنَّ صراع الحقِّ مع الباطل سنَّة إلهيَّة، حكمت وتحكم مسيرة الإنسانية، ولا يخلو منها مجتمع، مهما كانت درجة تطوُّره. ففي كلِّ تجمُّع إنساني تنشأ علاقات تنافسية، أساسها التدافع والتسابق على الموارد والخيرات والمال والقوَّة والمنصب والجاه والنفوذ. إنَّ أبرز مشكلة تعانيها الحياة الإنسانية، هي مشكلة تحقيق التوازن بين مصلحة الفرد أو الأنا، ومصلحة نحن أو المجتمع، وتبدأ المشكلة عندما تتسلَّط روح الأنانية على الإنسان، فتصبح مصلحته ومنفعته هما المعيار لأيِّ سلوكٍ أو موقف، أي أنَّه يصبح على استعدادٍ لأن يغلب الظلم على العدل، أو الكره والتعصُّب على الحبِّ والتعاون والتسامح، ويغلب الباطل على الحقِّ. ويبدأ الصراع عندما يستشري الفساد، ويتحكَّم الظلم والاستكبار بحياة مجتمعٍ ما ويعمُّ الخراب.

هنا يكون جوهر الصراع عبارةً عن تنافس إراداتٍ باتت على طرفي نقيض: إرادات تسعى لتمكين كلٍّ ما يساهم في إعمار الحياة، والخير، في مواجهة إراداتٍ همَّها مصالحها ومنافعها، مهما كلفها ذلك من إفسادٍ في الأرض أو تخريب. إنَّ كلمات الإمام الحسين (عليه السلام) حين قال: «إنِّي لم أخرجُ أَشِرًّا ولا بَطَرًا ولا مُفسِدًا ولا ظالمًا، وإنَّما خرجتُ لطلبِ الإصلاحِ في أُمَّةٍ جدِّي، أُريدُ أن أُمِرَ بالمعروفِ وأُنهى عن المنكرِ وأسيرَ بسيرةِ جدِّي وأبي عليٍّ بن أبي طالب. فمن قَبِلَني بقبولِ الحقِّ فإنَّ أُولى بالحقِّ، ومَن رَدَّ عليَّ هذا أصبر». وقال (عليه السلام) بعد ذلك أيضًا: «ألا ترون إلى الحقِّ لا يُعْمَلُ به، وإلى الباطل لا يُتَنَاهَى عنه» وقال: «لا وإِني لا أُعْطِيكم بيدي إعطاءَ الذليلِ ولا أُقَرُّ لكم إقرارَ العبيد». تعني أنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) قد انطلق في حركته على أساس عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أساس إعادة الحقِّ في الحياة إلى واقعه، من أجل أن يعمل الناس بالحقِّ، وإبعاد الباطل عن الواقع حتى يبتعد الناس عنه، وأن يقف المسلم على أساس أن يجسِّد العزَّة في كلِّ مواقفه، وأن يرفض الذلَّ في كلِّ مواقفه، كأنَّ الإمام الحسين (عليه السلام) يريد أن يقول لكلِّ الأجيال من بعده: إنَّني وقفت هذا الموقف من موقع إمامتي، ومن موقع

تحرّكي في خطّ الرسالة. فإذا عثمت تجربةً كتجربتي، وإذا واجهكم حكمٌ للتحرك وللانطلاق، فإنّكم تستطيعون أن تتحرّكوا في الخطّ الذي تحركت فيه، لأنّكم بذلك تنطلقون من حيث انطلقتُ، وترتبطون بالحكم الشرعي من حيث ارتبطت.

إنّ الإمام الحسين (عليه السلام) يعطينا الشرعية والقُدوة للانفتاح على كلّ الواقع الذي نعيشه مع رفض حالة الحياد بين الخير والشرّ، لأنّ الطالبين يستفيدون من الأكثرية الصامتة أكثر ممّا يستفيدون من جنودهم ومن أتباعهم، لأنّ جنودهم يتحرّكون ضدّ المستضعفين، فيما لا يعطي المتفرّجون قوّة لهم للمستضعفين، ولذلك يتغلّب المستكبرون على المستضعفين. فالأكثرية الصامتة هي التي يمكن أن ترجّح الكفّة عندما تتحوّل من صامتة إلى ناطقة، ومن ساكنة إلى متحرّكة، تلك هي المسألة. ولهذا كان الإمام الحسين (عليه السلام) يهدّد كلّ الذين استنصرهم والذين فلم ينصروه، ابتعدوا عن المعركة بغضب [ا] (سبحانه وتعالى) وبعبابه.

حين نستعيد أجواء عاشوراء، فإنّما نستعيدها لنعتبر بها ونتعلّم منها، ونعيشها من أجل أن نكون في المرحلة التي تكمل تلك المراحل، لأنّ الإمام الحسين (عليه السلام) كان خطوةً متقدّمةً في المسيرة الإسلامية الطويلة، التي لن تنتهي حتى يرث الأرض ومَنْ عليها. إنّّه (عليه السلام) كان يتمثّل بهذه الآية الكريمة: (مَنْ أَلْمُؤُومِنِينَ رَجَالَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا إِلَّا عَلَيْهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) (الأحزاب/ 23)، هناك من انتهت مرحلته ولاقى وجه ربّه، وتلك هي قصّة عاشوراء.

قصّة كلّ أبطال عاشوراء أنّهم عرفوا الحقيقة، وعاهدوا [ا]، لقد اعتبروا أن بينهم وبين [ا] عهداً، وأنّ الإنسان الذي يعاهد [ا] لابدّ له أن يصدق مع [ا] عهده. ومعنى أن يصدق مع [ا] في عهده، أن ينظر في كلّ مرحلة من مراحل حياته إلى كلّ ما يعمل، وإلى كلّ ما يريد أن يسير فيه، ليجد هل هو منسجمٌ مع عهده مع [ا] أو لا؟ والآن، كيف نفهم عهد [ا] هذا الذي أشارت إليه الآية، وهذا الذي تمثّل به الإمام الحسين (عليه السلام) في كلّ وقفة من وقفات الشهادة التي كان يقفها أصحابه وأهل بيته (عليهم السلام)، ما هو عهد [ا]؟ عهد [ا] هو الإسلام، وهو الإيمان. فمعنى أنّك مسلم، هو أن تعاهد [ا] سبحانه وتعالى، وأنّ تسلّم كلّ حياتك له وفي سبيله، أن تجعل كلّ خطواتك في طريقه، أن تواجه كلّ التحديات وكلّ الأخطار وكلّ العقبات في سبيل [ا]، ومن أجل [ا]... ذلك هو عهد [ا]، أن تُسلم له أمرك وحياتك، لا أمر لك مع أمره، ولا كلمة لك مع كلمته. أن تقول في كلّ مرحلةٍ من مراحل حياتك وفي كلّ يوم تصبح فيه وتُمسي: طاقاتي كلّها لك وحياتي كلّها لك.